«الهبوط من المطعم التركي» رواية الانتفاضة العراقية

محاولة لتهريب نص كتب على عجل من واقع إلى خيال

تبقىٰ مسـألة التسـرع في كتابة أدب بفنية عالية حـول أحداث كبرى في الواقـع مثيرة للجدل، فبعـض الكتّاب نجحوا في ذلك بشـكل لافت لكن الأغلبية فشلت في مجاراة الواقع وتحويله إلىٰ خيال بفنية عالية.

بناية ليس سهلا على من يصعدها النزول منها

وارد بدر السالم
كاتب عراقي

تتفاعل الثقافة العراقية بشـكل شامل مع حراك الشـباب فـي انتفاضته التي مـرّ عليها الآن أكثـر من شـهرين؛ فإذا كان الشـعر أسرع اسـتجابة من السرد تعبيريًـا، فـإن الأخيـر يغامـر في هذه الموقعـة الواسـعة ويحـاول أن يكون قريباً مـن أنفاس الحدث العراقي المهم، ليكـوّن أحد ملامـح التواصـل الثقافي والأدبي مع هذه الشريحة المنتفضة.

> الكاتب يحاول أن يوثّق جانبا من جوانب الانتفاضة في حراكها اليومي، متمثلا بالمطعم التركي كأيقونة حية

ومع حسـن النية التي نلمسها عند بعـض الكتّـاب بـأن يقدّموا سـرديات تحاكي واقع الانتفاضة، وتسـتلهم منها شـخصيات روائية لبناء حـدث جانبي متداخـل مع حـدث أكبر، إلا أنّ الشـطر الفني والجمالي سـيحول دائماً من دون أن يقـدّم السـرد حبكة سـردية ملائمة ومنفصلـة عن الجسـد الأساسـي لهذا الحراك الشامل.

متابعة الواقع

مـع أن الزمـن المقبـل – منطقيا – هـو أطول من الزمن الـذي مضىٰ والذي سـيمضي، لذا سيلزمنا أن نبلور هيكلية مناسـبة لبنـاء روائي يمكـن أن يكون وجهـاً آخر مـن وجوه التعبيـر الأدبي المحاذي للانتفاضة، لكن الزمن السردي قد لا يتوافق مع سرعة الوقائع، وبالتالي سـتكون ثمة فجـوة ملحوظـة بين زمن التلقّي وزمن الكتابة.

وهذا ما حصل بشكل أولي مع رواية جديدة للكاتب مشتاق عبدالهادي حملت عنـوان "الهبـوط من المطعـم التركي" كأول رواية تخرج من معطف الانتفاضة التي تنادي بزوال سلطة الفساد المعممة وترتيب البيت السياسي بلا محاصصات طائفية. وهي تحاول أن توثّق جانباً من جوانـب الانتفاضة فـي حراكها اليومي المسـتمر، متمثـلًا بالمطعـم التركـي كأيقونـة مـن أيقونات سـاحة التحرير البـارزة التـي عرفهـا العالـم، والتـي أطلق عليها – رمزيا – اسـم "جبل أُحُد" باسـتدعاء التاريخ الإسلامي البعيد في موقعـة قتالية معروفـة، لتكون خاصرة للثورة تمنع وصول القناصين وتشـرف علىٰ المنطقة الخضراء الحكومية.

تنطلـق الرواية من بنيـة اجتماعية طفولية بخيال الراوي وهو يستدعي أمه المتوفاة، ليراها بين النسـاء في ساحة التحريـر ويحاورهـا في خيال السـرد، ويقـدّم لها صـورة مصغرة عـن الحياة الجديـدة التـي يقودها شـبّان صغار، خرجوا إلىٰ الوعي مبكراً من رحم سلطة فاسدة.

ومـع أن هـذا الخيـال لـم يسـعف الرواية كثيراً إلا أنه حاول أن يوازن بين زمنين في إيلاء البنية الاجتماعية أهمية شـخصية تنطلق إلىٰ العام عبر هذه الأمّ الغائبـة، في آلية تقريريـة إلىٰ حدّ كبير وجدناهـا غير فاعلة كثيرا، سـوى أنها تريد أن تصل إلىٰ صورة ماضية وتربطها بصـورة حاضرة. غيـر أن الصورتين لا تتقابـلان كثيرا بسـبب البُعـد الزمني، ومتغيرات الواقع الاجتماعي والسياسي وما حمله من متناقضات كبيرة في بنيته الداخلية، وصـولاً إلىٰ الحالة المتداخلة في اشتباكاتها النفسية والعضوية حتىٰ قيام الانتفاضة بشـكلها الذي وقف عليه هذا النص القصير في محاولة التماهي معه، عبر لقطة واحدة في قصة حب بين فتـاة وفتىٰ فـي مبنىٰ المطعـم التركي، هبطـا من الطابـق الأعلىٰ إلـىٰ الطابق الأسفل ويواصلا المشاهَدَة من دون فعل يُذكر.

خروج عن الرواية

مـن الشـاهدة المعماريـة للمطعـم التركـي تطـل "الروايـة" علـى حركـة متواضعـة لتشـكّل بناءهـا البسـيط محاولـة أن تكـون روايـة بمكونـات سرديَة: زمن وحوار وشخصيات ومكان. غيـر أنها لم تتماسـك في هذه الدورة الفنية المطلوبة لإنشاء علاقـات صوريـة وجماليـة، فـإذا كان الزمن هو الحاضر، والمكان هـو المطعم التركي كشـاخصة روائيـة، فـإن الحـوار بإنشـائياته لـم يتوصـل إلىٰ رسـم صورة معقولـة عن الشـخصيات القليلـة التـي وردت فـي هذا النص القصير، سوى مـن شـعارات وحوارات يومية غير وافية لرسـم الملامح الشـخصية أو حتىٰ العامة منها، كدليل يسمح لنمو الشـخصيات تلقائياً وهي تتحصـن بالمطعـم التركـي أو سـاحة التحرير.

وحتىٰ علاقـة الحب التي ربطت بين "أحلام" والراوي سـتكون علاقة غير متنامية، أرادها الكاتـب أن تكون شـاهدة في زمـن الانتفاضـة كزمن اسـتثنائي غيـر اعتيادي، لكنهـا بقيـت فـي حـدود الرومانسـية العاديـة التـي تُكتـب عادة في هكـذا لقاءات سردية مفتوحة.

أعتقـد بـل وأجـزم أن الكاتـب الـذي لم تسـعفه لغة الواقـع بمحصلتـه الأخيـرة، فإنـه التجـأ إلـىٰ تغريب النـص وإلىٰ خيـال آخر بطريقة اسـتحضار الأرواح عبر الباراسـيكولوجي، للاستدلال علىٰ أماكن المخطوفين أو قوات الميليشيات وتجمعاتهـا، وهـي حجـة غيـر كافية لتهريـب النـص مـن واقع إلـىٰ خيال علمي غيـر موفق كثيرا. وربما وراء ذلك هـو العجز السـردي في خيـال الكتابة أمام واقع حي زاخـر بالتجربة اليومية الفريدة.

وإذا كانـت هـذه إشـكالية سـردية أضـرّت بالنـص ـ فإن هناك إشـكاليات شـكلية أيضا، وأولهـا أن "الهبوط من المطعم التركي" ليسـت رواية بحسـب التصنيف النقدي، ولا هي نوفلا – رواية قصيرة، ولا هي قصة طويلة. فبحسـاب عـدد الصفحـات (76) بطريقـة الطباعة التي فارقت بين الأسـطر بمسـاحة أكثر مـن سـنتمترين بيـن كل سـطر وآخر. وبواقـع 11 أو 12 سـطراً في كل صفحة سيتقلص هذا النص كثيراً ويصبح قصة قصيرة لا أكثر ولا أقل.

يلي ذلك زاوية القص المحصورة في مساحة نفسـية واحدة لم يتمكن الكاتب مـن قراءتها بشـكل جيد، مـا أجبره أن يخلق معادلاً خياليا آخر هو "استحضار الأرواح" الـذي لـم يفلح هـو أيضا بأن يخلق توازناً سـردياً مقبولاً. ناهيك عن بعض الأخطـاء الجوهرية في السـياق السـردي بما يخص برج المطعم التركي الذي ورد بأنه يتكون من 16 طابقا ولأكثر من مرة. في حين أنه يتكون من 14 طابقا.

ونذكر أن مشـتاق عبدالهـادي كاتب قصة قصيرة. صدرت له أكثر من مجموعة قصصية هي "ولادات" (1999) و"حربيات" (2011) و"سيرة الـ... هذا" (2014).

من ينشر الشعر؟

حسن الوزاني
كاتب مغربي

لم يكن غريبا أن تثبت آخر دراسة كنت قد أنجزتها عن وضعية الكتاب بالمغرب كثيرا من المفارقات التي تطبع، بشكل خاص، مجال إنتاج الكتابة الشعرية ونشرها وتداولها. فأي قارئ عادي قد يحس، علىٰ الأقل من باب الانطباع، بأن شيئا ما يكدر مشهد الكتابة، وبشكل خاص حضورها وتداولها المحدود ضدا علىٰ سيلان الإصدارات الذي لا ينتهي. وقد يكون ذلك جزءا من طبيعة الكتابة الشعرية التي تراهن بشكل أكبر علىٰ جانبها الرمزي. وهو الوضع الذي يجعل من المستحيل في كثير من الأحيان أن نجد أسماء الشعراء ضمن قوائم الأسماء التي جرت العادة أن تعلن عنها وسائل الإعلام علىٰ رأس كل سنة، أو أن نجد أعمالا شعرية ضمن لوائح الكتب الأكثر مبيعا المعلَن عنها بشكل منتظم. إنه نفس الوضع الذي يقتضي من الشاعر نفسا طويلا لكي يستطيع تكريس وضعه الاعتباري، وإن كان يندر أن يستطيع الشاعر أن يحقق حوله التوافق عليه من طرف كل النقاد، وخصوصا من طرف الشعراء الذين يبدون في الكثير من الأحيان أكثر تحاملا وقساوة من النقاد.

ولعل أهم المفارقات أن نجد أن أكثر من سبعين في المئة مما يصدر علىٰ مستوى الأعمال الشعرية بالمغرب، علىٰ سبيل المثال، يتم في إطار النشر علىٰ نفقة المؤلف. وهو الوضع الذي يخلّ بحلقات صناعة الكتاب، إذ يتحول الشاعر، الذي من المفروض أن تنتهي وظيفته عند صدور الكتاب، إلىٰ مُدَبر لمبيعاته ومرجوعاته. أما أغلب الشعراء الذين يلجؤون إلىٰ النشر علىٰ نفقتهم، فأسبابهم عديدة. فمنهم الشاعر الذي أغلقت أمامه دور النشر ومنهم من يستعجل الوصول إلىٰ مجد مفترض. ومنهم من يكتفي بطبع بضع نسخ ليحمل لقب شاعر.

أما الأمر المفارق فهو أن الشعراء لا يتعبهم الاستمرار في إصدار أعمال قد تُقرأ أو لا تُقرأ. ولعل ذلك ما تعكسه علىٰ سبيل المثال المكتبة الشعرية المغربية. إذ ظلت الأعمال الشعرية تتربع، علىٰ الأقل من حيث العدد، قائمة ما صدر بالمغرب علىٰ مستوى الأدب خلال القرن العشرين، محتلّة نصف ما صدر، بينما لم تتجاوز نسبة الأعمال الروائية العشرين في المئة.

ولا تتوقف هذه الهيمنة هنا، حيث تكشف آخر ببليوغرافيا تخص الشعر المعاصر المغربي، وهي التي أنجزها الباحث محمد القاسمي عن استمرار الشعر المغربي في تحقيق تراكم كمّي مدهش. إذ تشغل إصداراته خلال السنوات الست الأخيرة أكثرَ من ثلث ما نُشر بالمغرب خلال التسعين سنة السابقة.

وقد تجد هذه السيادة الكمية للأعمال الشعرية تفسيرها في عاملين أساسين. يرتبط الأول بوضع الكتابة الشعرية نفسها، باعتبارها جنسا أدبيا يستند علىٰ تاريخٍ عريقٍ، حقق الشعرُ في إطاره تراكما خاصا. وارتبط هذا الحضورُ بوظيفة الشعر النضالية، والترفيهية أحيانا، والتي حكمت وضعَه داخل البنية الاجتماعية التقليدية. وشكلت لحظةُ الحماية، كإطار عام لبداية ظهور نشر الأعمال الشعرية، مجالا لتكريس هذه الوظيفة، حيث مثل الشعر، في إطارها، مجالاً لتكريس الالتحام بين الوعي الوطني والوعي الثقافي، في إطار مواجهة الاستعمار.

بينما يرتبط العامل الثاني بتأخر ظهور الأجناس الأدبية الأخرى، حيث سينتظر المغرب سنوات الأربعينات من القرن الماضي ليرى أعماله الروائية والقصصية والمسرحية الأولىٰ. وهو تأخر ارتبط بمستوى تطور الوعي بالأجناس الأدبية الجديدة، وبسيادة البنية الثقافية المحافظة، والقائمة علىٰ تكريس التراث التعبيري التقليدي باعتباره جزءا من هويتها الثقافية.

غير أنه بالرغم من أهمية هذه الأرقام التي تحققها الإصدارات الشعرية، فإنها قد تُخفي وراءها حقيقة قد تبدو صادمة؛ إذ أن أغلب ما يُنشر ينتهي عند عتبة المطابع. وذلك إما بسبب انسحاب أغلب الناشرين من مجال نشر الشعر، وإما لإحجام الموزعين عن ضمان تداول الأعمال الشعرية.

ولعل هذا الوضع لا يهم المغرب فقط، بل يشمل أيضا أغلب الدول العربية وكثيرا من الجغرافيات الثقافية الأجنبية. وإذا كان الحكم علىٰ الحالة العربية لا يمكن أن يتم إلا من باب الانطباع لغياب منظومة إحصائية تمكن من حصر مؤشرات الإنتاج الأدبي ومتغيراته، فإن الجغرافيا الأجنبية تمنح صورة أوضح عن هذا الوضع. ولعل فرنسا، علىٰ سبيل المثال، تمثل النموذج الأفضل في هذا السياق. ويكشف تقرير النقابة الوطنية للناشرين الخاص بوضعية الكتاب بفرنسا، خلال السنتين الأخيرتين، عن كثير من المعطيات الصادمة الخاصة بوضعية نشر الشعر ببلد يحتفي بالقصيدة عبر حياته اليومية وأمكنته وفضاءاته. إذ تصل نسبة كل من المبيعات وأرقام المعاملات التي تحققها الإصدارات الشعرية بالكاد إلىٰ أقل من واحد في المئة من مجمل أرقام الكتاب. وإن كان يبدو مدهشا أن تظل أرقام معاملات الأعمال الأدبية بمختلف أجناسها علىٰ رأس صناعة الكتابة، متجاوزة الكتاب المدرسي والإنتاج في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها. ويبدو وضع نشر الشعر بفرنسا في الوقت الراهن مفارقا للتراكم الذي حققه البلد، خصوصا علىٰ مستوى بنيات النشر الكبرى التي كانت مواكِبة، خلال عقود، للحركية الشعرية بالبلد. إذ ظلت السلاسل الشعرية حاضرة بقوة ضمن كاتالوجات دور النشر الكبرى. ولعل من أهمها دار أكت سود وميركو دي فرانس. وذلك بالإضافة إلىٰ دار غاليمار المعروفة بسلسلتها الشعرية التي أقفلت نصف قرن من عمرها، محققة نجاحات مذهلة، خصوصا عبر مبيعاتها التي تقارب العشرين مليون نسخة. وسيكون نجاح السلسلة وراء إطلاق شقيقتها، فوليو، الخاصة بالشبان، ابتداء من سبعينات القرن الماضي، والتي تحرص بشكل أساس علىٰ تقريب كلاسيكيات الشعر الفرنسي من قراء استثنائيين في سن المراهقة.

مع حلول النت، ستختلط كثير من الأوراق. وإذا كان هذا الوافد الجديد سيفتح إمكانيات مذهلة للتواصل بين الجميع، فإنه في نفس الوقت سيغرق العالم بكائنات افتراضية تنظر إلىٰ نجاح القصيدة من باب عدد اللايكات المجمّعة. دون أن ينفي كل ذلك وجود أصوات حقيقية ما زالت تقاوم من أجل قصيدة رفيعة تليق بلحظتنا الإنسانية غير الرفيعة!

كتب منذورة للغبار

> المفارقة أن إصدارات الشعر خلال السنوات الأخيرة تشغل أكثرَ من ثلث ما نُشر بالمغرب خلال تسعين سنة